

الشهيد البطول
جواد حيني

المدوان الثلاثي :

إلى الجيل الجديد والأجيال القادمة — على لسان شاهد عيان — بعض
الامسات والمحات من سيرة شهيد مصرى؛ بطل سجل لنفسه يوماً من أيام مصر
الناهضة فكان فيلقاً وحده، وكان انتصاراً بتمامه ليحملوا أمانتهم كما حملها الذين
من قبلهم، وينقلوا للأجيال أحاديث هذا الشهيد وأمثاله من شهدائنا الأبرار من
آساد القتال وقساور (بور سعيد) ويذبعوا آية الجهاد والاستشهاد من
كتاب الخلود.

الكتائب الجامعية

ولا أجد ندحة وأنا أتحدث عن بطل شاب هو (جواد على حسنى
زين العابدين) شهيد جامعة القاهرة في معركة المدوان الغاشم على (بور سعيد)
من أن أتناول في لحظة عابرة ظاهرة كبرى برزت للأعين في جهاد عام ١٩٥١
وهي أن أبناء الجامعات قد شاركوا في حمل عبء الفداء الأكبر، وشهدت مصر
في ذلك العام ما تشهد نظائره كما أرادها التاريخ؛ أن تسطر صفحة من كرائم
صفحاتها؛ فلقد كان الجامع الأزهر في القرون الوسطى مركز الجهاد الأول ضد
الصلبيين القادمين من الشمال والغرب حيث العلماء يحرصون المؤمنين على القتال
فيخاطرون أسياقهم وهم طلائع لهم؛ وفي منتصف القرن العشرين هب الجامع العتيق
للدفاع عن الوطن بأرواح ذويه، وشهدنا سابقاً في الفضل كسباق المهاجرين
والأنصار في الفتوح الأولى؛ فتبارت أقدم جامعة في العالم مع الحديثات من
جامعات مصر؛ فبدأت من كل جامعة فيلق تحتفل به مصر الشعبية وتجزئه مصر
الرسمية إلى حيث يتفرق في كل وجه من شعاب القتال، ولم تكن خطوات
الشباب ميممة شطر القتال؛ وإنما هي نبضات شعب موتور يتشفي من وتره بمناجزة
عدوه لعله يشهد في حياته الانهزامة الفاصلة لغاصبيه من رماح بفيه؛ وكتائب

الشباب المتحمس التي تعمل مصبحة مسمية فرادى وجماعات؛ ترابط عند مبدأ القناة وأخرى تجتلد أشد الجلاذ مع العدو في الإسماعيلية، ثم أخرى في نهاية القناة في بور سعيد .. قد سقط في ثوراتها العديد من الشهداء وأظهر الثوار خلالها من روائع البطولات ما جعل منها ملحمة وطنية؛ كانت مجالاً لظهور عدد من الأبطال الشعبيين الذين لم يكن لهم من قبل اسم يذكر، ولكنها الشدائد منبت الرجال ومصنع الأبطال كما أسلفنا في حديثنا عن الشهيد (جلال دسوقي) .

الفدائيون الشهداء.

ورأينا غلماناً فدائيين مثل (نبيل منصور) يضحون بأرواحهم يشدون على العدو ويوجعون فيه قتلاً ذريعاً، وهذه (أم صابر) من فقيرات مصر ولكنها أكرم الكرائم ومن حرأرها؛ يسفك الإنجليز دمه والأبناء تترى عن أسرى الشهداء من طلبة الجامعات بالقاهرة والاسكندرية ممن سيحفظ التاريخ أسماءهم في فاتحة الكتاب من تاريخ الجهاد، ونفخ في الصور ففدا الشعب في تعبئة عامة، وأخذ المصريون من كل حذب ينسلون إلى صحراء القناة؛ فإما قضى عليهم العدو وإما قضوا عليه، وهم في الحالين منتصرون، وتوالت الاكتتابات للتسليح وأعدت الحكومة قانوناً لإباحة حمل السلاح؛ بل غدت ساحات الجامعات ميادين رسمية للتدريب وزار (مصدق) مصر فحيا الجهاد الأكبر، وعاد يقول (إن العالم يتعلم على مصر دروس الفداء) ثم كانت الأنباء في فاجعة (كفر أحمد عبده) تفرع الأسماع فقد أصبح كفر (أحمد عبده) بلداً بطلا كالرجال الأبطال؛ وفي القرى بطولة كما في البشر من بطولة فهبت أفواج من شباب الجامعة تثار لكفر (أحمد عبده) ولما تلاقى الجندي الإنجليزي بدباباته وطائراته ونسافاته في القناة مع شباب الجامعة المتطوعين، كان الإنجليزي يبكي وكان الفدائي المصري ينتصر، كانت مصر آتشد تنقلب على الجمر وكانت أبناء الأسرى والشهداء تدخل الأسي صباح مساء على كل نفس؛ وعاشت مصر فترة

استشهاد سبقي في جبينها كالنور الإلهي، وأوهى النور الإلهي نفسه يشع من أبطالها
كاشع من قبل في الحواريين والصدّيقين والشهداء . وفي ليلة العام الجديد عام
١٩٥٢ كانت ذكرى الخشوع والخضوع لرسول السلام ، في حين كانت دماء
مصر تسيل أنهاراً فوق ثراها ونشرت الصحف صوراً لجنّازة (عادل محمد غانم)
الطالب بكلية الطب محمولة على الأعناق ، بعد أن عاد شهيداً من ميادين القتال
وأشتمت معارك الفدائيين ويستشهد منهم الكثيرون ، وتكون الجنّازة الصامتة
لشهيد الوطن بجامعة الإسكندرية (عباس سليمان الأعسر) يتقدمها مدير الجامعة
ووكيلها والعمداء والعلماء .

ثم يحتفل في الزقازيق ومصر بتشيع جنّازة شهيدى الوطن المجاهدين الطالب
(أحمد منيسى) بكلية الطب والطالب (عمر شاهين) بكلية الآداب .

وينتقل ميدان المارك إلى منطقة (التل الكبير وأبي حماد) ، ويعلن عن استشهاد
شباب الجامعات فيهما ، وقامت مصر تتأّر لشهادتها الذين يلقون الشهادة في الصفوف
أو لاقوها في آتون الأسر الإنجليزي . ولقد فعل (الفدائيون) الأفاعيل بالإنجليز
الذين كانوا ينقلون قتلاهم مدحورين مذمومين ، وماهى إلا مصر بفضائلها
وشمائلها تتمثل في الطيار البطل (أحمد عصمت) وما إنجلترا في عنفوان عدوان
الاستعمار إلا (البريجادير) فتواقع الفريقان ، وأتى الشهيد (عصمت) مسدسه
في توفيق وتسديد ففضى على ثلاثة منهم (البريجادير) وحراسه وتهدهد الثلاثة
الإنجليز صرعى يخورون وأدى البطل المصرى رسالته ، وانتصرت روح مصر في
(التل الكبير) وتعلم العالم أن المصرى إذا لقي الانجليز ؛ بل القائد الإنجليزي
وجهاً لوجه كانت الدولة لنا والدائرة عليهم .

ويقف الشاعر مع الفدائيين فى أهوال النضال ، وقد هبوا من كل صعيد
إلى المحتل الجائم على ضفاف القناة ويهتف :

نفخ الصور فانتبه من سباتك أيها الشعب تلك أولى حياتك
الفداء الفداء، ناداهم النيل فحفوا كالطير في شجراتك
ويد الله في يديهم سلاح طيفه للعدا حتوف فواتك
لن تذوق الحياة حراً إذا لم تسقها ما تريد من تضحياتك
وإذا رفرفت نفوس الضحايا كل يوم فأطربت ثاكلاتك
ورأيت الشهيد يهتف للموت ومعنى صباه من بشرياتك
فهى للبعث صحيحة وأذان أيها الشعب تلك أولى حياتك

ثم أراد الإنجليز تكرار حادث ضرب الإسكندرية منذ سبعين عاما ،
ونشبت الممارك بين القوات البريطانية وبين الأهالي غير المسلمين في الإسماعيلية
فلم يبق لهم إلا الموت .

وذهب (تشرشل) يستجدي من أميريكارجالا للدفاع عن القنال ضد جماعة
الغداثيين من شباب الجامعات المصرية، وضد مصر التي تطالب بحريتها وأعلن أن
مجازرهم في القناة قد فافت مجازرهم في دنشواى .

وقام الغداثيون بدورهم في معسكر (أبى سلطان) فنفسوه .

وجرت الأحداث .. ووليت الحكم وزارة لم تحم ظهور الغداثيين نفخى
النور، ولم تحب النار وكان حريق القاهرة ..

وفي ظلمات اليأس دقت نواقيس الزمن وقامت ثورة الجيش فى الثالث

والعشرين من يوليو عام ١٩٥٢ .

وطلع الفجر الجديد ، وأصبحت مصر لنا ، وانفتح أماننا الطريق لنبلغ
حيث نكون فى الوطن كما كنا فى الدين (خير أمة أخرجت الناس) وستطلع
الأجيال المقبلة إلى آيات البطولة التى سطرها فى ألواح تاريخنا آساد القنال نرى
فى أنوارها وجه الوطن الغالى .

شهداء فلسطين :

وإذا كنت قد أضفت لحساب جيلنا خطوات الشهداء على أرض القتال عام ١٩٥١ - ١٩٥٢ فإنى لا أنسى هؤلاء الذين سبقوا هذا الرعيل في معارك فلسطين عام ١٩٤٨ فقد كان منهم الفدائيون الجامعيون الذين كان يرأسهم البطل (محمود عبده) المدرس بالمدرسة الخديوية، والذي تولى الدفاع عن « بئر السبع » وكان على رأس فريق من الفدائيين، كانوا نماذج حية للتضحية والفداء وبجانهم الفدائيون والمتطوعون من رجال الجيش، وكان قائدهم الفدائي الأول الشهيد (أحمد عبد العزيز) ، وقد كان الشهيد الأول من الفدائيين (فتحي الخولى) الذى استشهد فى « خان يونس » وتبعه الشهيد البطل (أنور الصيحي) الذى استشهد فى معركة « بيت إيشيل » ثم الشهيد الصاغ (محمد سالم عبد السلام) من مدفعية الفدائيين ، واستشهد فى معركة « تبة المسلوج » .

وهكذا نقرأ فى مذكرات الفدائيين فى فلسطين ما يجعلنا نؤمن بأن الحرية كلما حوربت اهتزت وربت ورواها دم الشهداء ، وخدمها الأعداء قبل الأصدقاء ، وكانت صيحة الحرب عليها دعوة النصر لها، وأصبح كل شهيد على ثرى فلسطين أو القناة معلما من معالم أمتنا يضاف إلى القيم العليا التى تقوم بها مصر قبل أن تقوم بكنوز ثراها ؛ بما تحمله على الأمة من صفات تعلى مستواها فوق ما تغليه القيم المادية .

ثورة يوليو سنة ١٩٥٢ :

ونعود إلى الثورة الوطنية العربية التى قام بها جيش مصر عام ١٩٥٢ والتى انتفضت الأرض لنورها وهو يهدر على زروعها وأكواخها بنفير البعث والحياة ، ولكنها زلزلت هذه الأرض تحت أقدام الاستعمار وأيقظته من أحلامه وتردد الهتاف من أفواه الملايين فى آذان المستعمرين « أخرجوا من أرضنا » .
(م ١٠ - شهداء الإسلام)

وقال قائد الثورة المفدى، وقالت مصر كلها وراء قائدها (ستخرجون من ديارنا مكرهين؛ إن لم تخرجوا اختياراً وطواعية) وماهى إلا أيام حتى نشبت معارك القفاه بين الفدائين الأحرار من شباب مصر وبين جيش الاحتلال . وحققت لمصر سيادتها الكاملة . ثم مضت مصر فى طريقها لتحقيق برنامجها المرسوم فى الداخل والخارج : برنامجها للارتفاع بمستوى الشعب ، ولتحقيق العدالة الاجتماعية ، ولإرساء قواعد الحكم على أساس ديمقراطى ، ثم لتوثيق أسباب الوحدة العربية ولتحرير الوطن العربى من بقايا الاستعمار والصهيونية، ولتحقيق التكامل الاقتصادى والمسكرى بين البلاد العربية .

وتجاوبت أصداء الدعوة للقومية العربية من الخليج إلى المحيط ، ثم وضعت الثورة خطوط مشروعاتها الضخمة وكان أولها إقامة السد العالى ، وتقديم سماسة الاستعمار إلينا ليساومونا ولنكون تابعين لهم . فأصررنا على الاستقلال وجرت للفاوضات وأبوا أن يعطونا مالا ، وأبوا فى الوقت نفسه أن يرضوا عن استيراد السلاح من دول الشرق، وعرضت روسيا معونتها غير مشروطة ؛ ولكن رد مصر كان كريماً كالمهد بها وقالت (إن لنا من مالنا ما يكفيننا) .

وأمت القفاه .. وكان التأميم فصلاً جديداً فى تاريخنا وتاريخ الأمة العربية إذ كان أول عمل إيجابى ليس بعده إلا التقدم ليمتد (كورنيس العرب) على ساحل البحر المتوسط من طنجة إلى الاسكندرونة ويتوحد الوطن العربى .

وبرزت هذه الحقيقة أمام العصابات الاستعمارية فأخافتهم الجولة التى تلى تأميم القفاه ، وأحسوا ذلك منذ برز فى سياسة الشرق الأوسط العملاق العربى شعار الثورة التحريرية الكبرى ورائد القومية العربية الرئيس (جمال عبدالناصر) ومنذ هتفنا باسم زعيم العروبة (جمال عبد الناصر) فجاءنا هتاف آخر باسم (صلاح الدين) ، وارتاع الاستعمار ونسى أن معسكرات التدريب المتفرقة تضم مئات

الآلاف من الشباب يتدربون جميعاً استعداداً لمعركة الغد؛ ليربصوا بالموت لكل من تحدته نفسه بالاعتداء على جزء من وطننا أو جزء من سيادتنا ناسياً معارك (رشيد وباب الشعرية وبولاق) التي علمت أهل (ستالينجراد) أن يدافعوا عن مدينتهم فانتصروا حين عجز الجيش عن الانتصار .

حرب السويس

مثل هذا أخذ الشبان يتدربون في ساحات الحرس الوطني منذ صك أسماعهم إنذار العدوان الفاشم عام ١٩٥٦ ليسكون كل منهم حارساً أميناً . . وقد غدا الشعب كله جيشاً من القذائين، وكل بيت صار حصناً وكل شارع صار ميداناً لمعركة، وتبارى الجميع في التضحية واستولت على الأمة جمعاء تلك القوة التي ينزل القدر عندها، كلما صدقت الأمم جهادها فترفعها درجات في لحظات فوق مستواها وكان يوم التاسع والعشرين من أكتوبر عام ١٩٥٦ هو الموعد الذي حدد لاجتماع ممثلي مصر صاحبة القناة بممثلي الدول تحت راية السلام في جنيف للبحث في مستقبل القناة، وفي هذا اليوم بدأت قوات إسرائيل تتحرك بجموع كثيفة وعتاد ثقيل نحو الجيش المصري في سيناء صوب (قناة السويس) توأزرها في السر قوات الاستعمار البريطاني الفرنسي وفي يوم الثلاثين من أكتوبر؛ بينما كانت القوات المصرية في البحر والبر والجو تدق على رأس إسرائيل - تقدمت إنجلترا وفرنسا إلى مصر بإنذار يقضى بأن تحتل الجيوش الإنجليزية الفرنسية شاطئ القناة لحمايتها، وانتهت المدة الموقوتة للانداز ومصر التي رفضته بلسان قائد قافلة الحرية في طريق الزحف المقدس الرئيس (جمال عبد الناصر) كان جوابها جواب أمة شامخة يشهد لها العالم أجمع بمواقفها التاريخية، وكانت معركة الحرية يتأجج أوارها في سماء (بور سعيد) الخالدة وقد هب الشعب العربي كله مع مصر في نضالها الخالد لسحق الغزاة وصد (المدوان الثلاثي) الخاسر ومست النار المقدسة كل شيء

فانصهر وكشف عن معدنه الأصيل ، ونزلنا جميعاً إلى المعركة وقد انبعثت
أشواقنا العميقة للحرية للتعبير ، للنسamy ، للفداء ، لليقظة العامرة التي يهتز لها
كياننا كله وينتفض في وجهها كل شيء في وطننا ، مادياتنا ومعنوياتنا وصنعت
(بورسعيد) المعجزات فكانت قصص البطولة في المعركة مثيرة تسمع من سجل
حقائقها محض أساطير ، وحسبك هتاف الشعب في المعركة بوجه إنذاره للفزاة ،
(سنحاربكم بما بقي فينا عن دم لم تستصفه بعد وحوش الاستعمار بأيدينا ، فإن
قطعت فبأشلائنا وبالسلح ، فإن عجزنا فبالعصى وبالجمارة ، وبأنقاض المعاهد
التي تضربونها وعلى الشاطئ والمزارع والرمال وفي كل مكان ، وبكل شيء
فإما رددنا إلى مصر كرامتها وإما رددنا للسماء وديعتها) .

بين العواصف والردى الجبار	وربى تظللها طيوف النار
جزنا خضم الموت ملء صدورنا	عزم يدك غوارب التيار
في (بورسعيد) وقد ترامت حولنا	أشباح هلك أو رعود دمار
وكأن أشبال الكفانة في الوغى	زمر القضاء الفاتك البتار
وإذا جيوش القاسطين بدائد	مثل الخريف على يد الأعصار
يا أخوتي في بورسعيد تحية	صداحة بالزهو والإكبار
هذي مدينتكم وذاك نضالها	تتلى ملاحمة على الأدهار
نخر المدائن أنت أروع قصة	لكفاح شعب خالد قهار
لله يوم قد شربت صباحه	ناراً ومغربه سلاف نهار
خضبت دماء بنيك مطلع شمس	حتى شهدت غروب الاستعمار

وهكذا وقف الشعب الذي أنقذ الحضارة من الصليبيين حين سحقهم في
(حطين) وأنقذها من التتار حين دحرم في (عين جالوت) وقف بنقذها من
حرب عالية ثالثة ، إذ كان محتملاً أن تتطور (معركة بورسعيد) إلى حرب

عالمية لولا أمانة (جمال عبد الناصر) الذي أخلص لقضية السلام العالمي، فكان الصبر على المعركة والرضا بعذابها، وقيامنا وحدثنا باسم ولياتها كان ذلك نجاة مؤكدة للعالم كله من الحرب الثالثة، وهكذا برزت معركة (بور سعيد) إلى سجل الخلود العالمي، ولسنا وحدثنا نذكر (بور سعيد) على أنها مقبرة الفزاة ومفخرة الانسانية ومادة للتاريخ ونبع للقصص البطولية فان عدونا أيضاً يذكرها جيداً ، فقد ضاعفت بور سعيد محازيه وأضافت إلى قائمة هزائمهم في (دنكرك ودين بيان فو وكينيا والجزائر) خزيًا كبيراً رهيباً جلته به بور سعيد .

وبين تلك الصفحات الناصعة التي سجلتها معركة الحرية في (سيناء وبور سعيد) بدماء شهدائها الأحرار الذين أريقت دماؤهم في ميدان البطولة وساحات الشرف في سبيل تشييد الصرح الشامخ لأمجاد الوطن ، وضمان حرية أبنائه وإقامة دعائم السلام ، تلك الصفحة الخالدة التي كتبها الفدائي البطل الشهيد (جواد على حسنى زين العابدين) الطالب بكلية الحقوق فقد سطر بدمه الطاهر قصة كفاحه وتعذيبه على جدار السجن الذي استشهد به في معركة (بور سعيد) على يد المعتدين الفادرين فسجل قصته في كتاب الخلود، في تاريخ أمته العريقة ، إنها صفحات كتبت بالدماء وهي من أجل ذلك صفحات محببة إلى نفوس الأحرار في كل بلد وفي كل أرض تعشق الحرية .

بطولة جواد .

وهنا نعرف بشخصية أحد هؤلاء الأبطال (الفدائيين) الذين تجلت فيهم كل الفضائل التي عرفتها الإنسانية ، ذلك هو شهيد الجامعة في معركة المدوان الأثيم الفدائي الشاب . . . (جواد على حسنى زين العابدين) الذي سجل له التاريخ موقفه المشرف العظيم ، حين وقف في وجه الطغاة في سيناء بين رائحة الدم وفيح جهنم يدافع عن حمى وطنه مضحياً بنفسه في سبيله، وشاءت خسة البرابرة المعتدين

أن يقترفوا جريمة بشعة فيقتلوا الفدائي (جواد حسنى) حين وقع في أيديهم أسيراً، وصرح لهم بأنه من (الفدائيين) فطمعوا في أن يطلعهم على الأسرار الخاصة بالجيش المصرى أو مواقع الفدائيين؛ وأطعمهم في ذلك صفر سنه والجراح الفائرة التى أصابته في ساقه وصدره، ولكن خاب ظنهم وفشل مسامهم، فما كان الفدائي الشاب بالذى يسمح للمدو بأن يحصل منه على شيء ولا سيما إذا كان هذا يتعاق بشئون وطنه، وهو الوطنى الفيور والقدائى المدرب الذى يقدر بلاده ويضحي فى سبيلها بحياته، وحين أعيتهم الحيل فى نيل مبتغاهم عمدوا إلى التشكيل به، ثم قتلوه على الصورة الشائنة التى يندى لها جبين الانانية وتجلل وجوههم بالخمزى والعمار:

قد تحولت (ياجواد) زثيراً	بعد أن مح غابك الأدياء
وتحولت دونه صعقات	جمدت فى الوريد منه الدماء
أرض سيناء قدرفعت حماها	فعدا النجم فى العلا سيناء
حين حار الأعداء فيك، فتيا	واحداً بزفيلقا ولواء
هالمم منك أن تكون فريداً	يتنزى منه المدو بلاء
والتقييم: أولاء ضرب من الموت	وها أنت كنت فيهم قضاء
ورمت عزمك الحديد جراحات	فكانت عيناً لهم نجلاء
فأحاطوك بالخيانة والقد لئاما	ملء الورى حقراء
أسروا المجد والشهامة والرأى	وهام الإباء والجوزاء
فعدا المجد والشهامة والرأى	جبالاً أمامهم شماء
سألوهاما السر؟ قالت معى !!	سر ولكن يظل سيناء وراء
أفرغوا دونها الرصاص هباء	آحسن الجبال هذا الهباء

حياة جواد والعصر

ولد جواد حسنى فى العشرين من أبريل عام ١٩٣٥ فهُو من أبناء مصر الحديثة التى رأت النور فى آفاق ١٩١٩ ورضمت من لبان النهضة التى تمهدها (مصطفى كامل ومحمد فريد) فى فاتحة القرن كانت تلك الفترة القائمة من التاريخ، كما تحدث عنها بإسهاب فى سيرة (البطل جلال دسوقى) فى هذه الفترة من حياتنا - ولد الفدائى (جواد حسنى) وعاشها وكأنما كان القدير بعده لما قام به بعد من بطولات فأى ضغط كانت ترزح تحته أعصاب لداته فى هذا الزمان !

نشأة جواد

ولد من أب مصرى هو الأستاذ (على حسنى زين العابدين) وهو من أعلام القانون المثقفين وأعلمهم باللغة الإنجليزية، وهو مثال رفيع للخلق القويم والوطنية الصادقة، ولقد تزوج حسنى حين بعثته فى إنجلترا بسيدة إنجليزية مثقفة ذات خلق طيب، هى أم (جواد حسنى) وهى إن كانت إنجليزية إلا أنها كانت تستشعر فى جميع تصرفاتها أنها فى بيئة شرقية، لها تقاليد ومقوماتها، وقد قام الوالدان على تنشئة ابنهما جواد نشأة قويمة تساندت فيها التربية الإنجليزية الاستقلالية مع التربية الشرقية الإسلامية، مما جعل التلميذ الصغير فى طليعة أقرانه علماء وخلقاً حتى أتم دراسته فى المرحلة الابتدائية بالإسكندرية فى نحو الثانية عشرة من عمره مبرزاً بين الدارسين مجيداً اللغة الإنجليزية ولحق الفتى النابه بعد دراسته الابتدائية، والتي كان يتألق فيها ذكاءً وألمعية بمدرسة (الرميل الثانوية) وينقضى نصف عام ثم تنقل الأسرة إلى مصر؛ فيحول إلى مدرسة (الإبراهيمية الثانوية) فى يناير عام ١٩٤٧ ويظل بها خمس سنوات مثلاً كريماً للطالب المتميز، له من شوائله ماضن محبة الخلطاء وصفاء الزملاء، وكان حريصاً على أداء واجباته ومرضاة أساتذته، وقد أثر عنه من المصابرة والمثابرة ما جعله

موضع حفاوة معلميّه، وكان وفياً لهم بزورهم وهو بالجامعة، ورغم رفاهية عيشه فإنها لم تكن تعبر عن نفسها إلا في خطرات نفسه وانبعاثات وجدانه ونبالة عواطفه فلا يتختم ولا يتمطر ولا يتبدى في الألوان الزاهية من حلل الشباب، وكانت سماته الغالبة هي التواضع والانطواء وحبّه ألا يبدو عليه مظهر من الثراء أو الجاه لأنه مرهف الحس حريص على علاقاته الإنسانية، ولقد طوعته اللغات الثلاث ولكنه أجاد الإنجليزية إلى أبعاد غاية، وكان فناً يهوى الرسم وإن لم يظهر أثر ذلك إلا في الجامعة، وقد كان التاريخ الإسلامي والمصرى هو موضوعه المفضل وقصص البطولة شغله في وقت فراغه، وقد كانت رعاية والده العلمية له وحرصه على تزويده بأزواد شتى من المعرفة بشخصيته أو بمكتبته التي تكتظ بألوان من الثقافات هي مصادر غذائه العقلي، وقد آمن والده كذلك بأن الدعامة الكبرى لفرس الوطنية في الشباب، هي أن يحب الكبار الوطن في أشخاص الصغار بالتواصل العقلي والعلمي، وأن يحبه الصغار في المثل العليا التي يضرها الكبار لهم بحسن صنيعهم وجيل مزايهم، فسار مع جواد على هذا الدستور وقد دل أسلوب الكتابة عند (جواد) على ذاته حين طلب إليه أستاذ اللغة العربية في السنة التوجيهية أن يكتب قصة موضوعها (هب أن الأعداء اعتدوا على حدود وطنك الحبيب فدعيت إلى الدفاع عن حماك ومقدساتك فإذا أنت فاعل؟) فكان العجب العجيب أن الشاب القدائي (حسنى) كأنما كان ينظر بعين الغيب إذ يكتب قصته التي صنعها ببطولته بعد؛ ولم يتخلف منها غير بعض الخطوط التي أملت عليها ظروف المعركة، ولكنها كانت مطابقة للواقع في البدء والختام.

وفي أكتوبر عام ١٩٥٣ استقبلت كلية الحقوق بجامعة القاهرة طالباً أبيض اللون دقيق القسمة، ضامر الجسم ليس مفرطاً في الطول، بل لا يتجاوز

طوله مائة وسبعين سنتيمتر، نافذ النظرات في عينيه شعاع عامر بالأنس والطمأنينة والتصميم، يميل وجهه إلى أن يستطيل من تحت جبهة متبديدة للناظر، وفم دقيق يغلب عليه الابتسام، يعلو رأسه شعر ناعم ذو لون أصفر قاتم فيه سمات كريمة لم يطاول أحداً بثرائه ولا يجرى وراء الثناء، فإذا تحدث أقل وأقنع ولا يتفضب على أحد فما في قلبه موضع الحقد أو حسد يملك لسانه وسمعه وبصره، كل ذلك في مزاج من الترفع والتواضع واليسر - ذلكم هو البطل الفدائي (جواد على حسنى) ولقد أحبه إخوانه بالكلية فكان يختلف إليهم يناقشهم في السياسة الدولية والداخلية، وهو شات الأحزاب مناقشة شاب متوثب يقرأ الصحف الإنجليزية والمصرية اليومية والأسبوعية والشهرية، ويستمع إلى محطات العالم الإذاعية، وقد أصدر مجلة للكلية سماها (الكرامة) وعلى صفحاتها أخذ يوجه إلى الاستعمار السهام القاتلة لاعتقاده أن الاستعمار أكبر ما يسيء إلى كرامة الأمم ويهدر حقوق الإنسان، إذ هو استدلال واستغلال واستعباد واسترقاق وتخريب، نعم لا شيء غير الكرامة فهي عنصر أساسي موروث في (جواد) وهي طبيعة تسرى في دم كل مصري وكل عربي: كرامة النفس التي رفعت (جواد) عن احتمال الضيم وجعلته يتمسك بالأخلاق العالية، وكرامة الوطن ويقف حياته لخدمته والتضحية بكل غال في سبيل عزته وكرامته الإنسانية، بالدفاع عن المستضعفين في الأرض من أي الأمم وفي أي البلاد، ومن أجل ذلك كون الفقيه في السكلية جماعة أسماها (جماعة مقاومة الاستعمار) وسهر على تنميتها وتحقيق ما تستهدفه من أغراض نبيلة:

كان الهلال وأعطى من أشعته ما لم تفضه على الآفاق أقطار
رأته مصر صبيًا حاملاً قلمًا بسبيل منه على أعدائها القار
بلدت كرامة عصر في (كرامته) وصوته صادع بالحق زآر

يقول لا عاش الاستعمار في بلد أصحابه من شباب الدهر - أحرار
فلا يظل دخل في مواطننا وما سوى أهلها أهل وعمار

ولقد كان من بين رفاقه في الكلية من يراه مبالغاً في تمثيل دور الوطنية
فهو مترف لا يحس آلام الشعب وأحاسيس بنى وطنه، ثم هونجل (سيده إنجليزية)
هي سيلة الفاصبين، فكان يشق عليه هذا ويشكوه لوالده الذي كان يتخذ
أباً وصديقاً، فيهون عليه الأمر من أنه لا بد لأصحاب الرسائل من تحمل العقبات
ووقف يوماً بين زملائه بالكلية يحدثهم عن مقومات الرجولة الأصيلة، وأنها
ليست في الثراء الزائف، بل هي فيما يصنعه المرء لنفسه؛ وأنه يسعه أن يمتن أي
مهنة مهما اتضع شأنها فهي شرف له ويضمن بها العيش الكريم، فاقترح عليه
أصحابه أن يختار (مساح أحذية) لينفذ برنامجه عملياً، وكان ما أرادوه وذهب
الفتى الأنيق الذي يرتدى أغلى الثياب يحمل صندوقه في يد وكتبه باليد الأخرى
ويتنقل بين المقاهي وأروقة الجامعة لمسح الأحذية، وإذا شاء أحد أن يشجعه
بأكثر من الأجر المعلوم أبي في عنف ولفنه درساً في الكرامة، وكان أن نجح
في رسالته وأعلن أن من يحترم مهنته ويخلص لها فإنه يكسب منها ما يوفر له
أسباب العيش، فقد كسب في الشهر الأول عشرة جنيهات بعد نفقاته لأنه امتنع
أن يأخذ من والده شيئاً وبذا حقق الشطر الأول من البيت الذي كان يتخذ
دستوره في الحياة وهو:

أنا إن عشت لست أعدم قوتاً وإذا مت لست أعدم قبراً

وكان لا بد أن ينفذ دستوره في الشطر الثاني.

جواد الفدائي :

فكان دوره في الوطنية أن كان (جواد) أول طالب من طلبة الكلية
تطوع عام ١٩٥٣ في سرية الفدائيين التابعة للكتيبة الثامنة عشر (مشاه بنادق)

بالجيش المصرى؛ فتمرس أعمال الفدائيين على اختلاف دروبها، واشتهر بين إخوانه وأساتذته بالحدق والمهارة وإجادة الرماية والشجاعة والصبور والثبات على المبادئ السامية، وكان يقضى بعض أيامه فى المعسكرات؛ وقد صرح والده بأنه يتمنى لو أتيجت له فرصة الدفاع عن وطنه .

حتى كانت قصته البطولية وهى حقيقة أروع من الأساطير حقيقة أعظم من كل خرافة .

فى أيام (العدوان الثلاثى) على بلادنا خرجت هذه الحقيقة إلى الوجود وسطرت خاتمها بالدم على جدران السجن الكالحة .

فى أكتوبر عام ١٩٥٦ حدث الاعتداء الإسرائيلى على حدودنا الشرقية وأعقبه الإنذار الإنجليزى الفرنسى المشؤم، ثم الاعتداء المسلح فنهض أبناء الوطن كالمردة والمالقة، وخرج آلاف الشبان إلى معسكرات التدريب فى الجامعات والساحات والنوادي، وقد تعاهدوا جميعاً على التضحية والفداء حتى يحرزوا النصر أو يفنوا عن بكرة أبيهم :

والرفقة الأحرار فى كليتى	يقضون فى الأعداء أى قضاء
إنا تعاهدنا على ألا يرى	فى أرضنا عاد سوى الأشلاء
وانسلت البغضاء فى أعماقهم	ناراً وما أقسى لظى البغضاء
فمضوا تذيب الهول من هباتهم	حمم تذيب جهالة الأعداء

وقد انطلقت الكتائب إلى مكان حول مكان الاعتداء إلى (عزبة البرج والاسماعيلية والقنطرة) وتسربت فوق الصاعقة إلى سيناء للتسالى إلى قلب العدو فى (بورسعيد) تنضم إلى الفدائيين داخلها، وتنظم حركة المقاومة ورأى (جواد) أن ساعة الجهاد قد حانت وأن ما كانت تتوق إليه نفسه العظيمة المجاهدة قد آن فاستأذن والده (الأستاذ على زين العابدين) وكيل وزارة الإرشاد القومى آتذ فى اللحاق

بفرقة ، فلم يسع والده وهو المجاهد المعروف بحماسة ووطنيته إلا الاستجابة لطلب ابنه الوحيد ، بل شكره وحيأ فيه هذه الروح العالية ، وأوصاه أن يكون الجتدى المناضل المستميت فى سبيل كرامة بلاده وعزتها ، عندئذ قبل يدى والده ووعدله بأنه سيكون عند ظنه به . وزاد بأنه سيجعل نصب عينيه الأهداف والمثل العليا التى رسمها السيد الرئيس المفدى (جمال عبدالناصر) هذه الأهداف التى يناضل من أجلها الأحرار فى جميع الأقطار العربية ، ثم ودع والده الوداع الأخير وحيأ والدته وأختيه الوحياتين وسارع إلى الميدان ، وإلى أشد ساحاته خطراً (صحراء سيناء) وفيها أظهر من البسالة ما سجل له صفحات مجد ونخار .

وفى الأسبوع الأول من نوفمبر استطاعت كتيبة جامعة القاهرة أن تتسلل إلى سيناء ، وعند العريش التقى بمقدمة قوات إسرائيل وفرنسا ، قاتل (جواد الفدائى) الفتى الذى لم يجاوز الواحد والعشرين ربيعاً من سنى حياته ، قاتل قتالا مهيماً وبالرغم من بنيته الضعيفة وبدنه الضامر ، قاتل ونسى كل شىء غير وطنه ، نسى حياة الترف التى كان يعيشها وأصدقاء الصبا فى حى (المنيرة والسيدة) زينب ، نسى جامعته ومستقبله ولم يذكر غير وطنه المفدى :

وعرقتم عن دارنا : هل عودها صلب فلم تهتز للنكباء
يادار أنت سلية الأهرام بنت الخلد فابقى أنت بعض بقائى
وأبى وأمى يارفاق وإخوتى هلا رضوا عن شدتى وبلائى
أترام علموا بأنى لم أزل كالعهد بى مهما لقيت (فدائى)

اصابة جواد :

وعندما صدرت الأوامر بالانسحاب ، رفض الخضوع رغم جراحه وفى تلك الليلة كتب لوالده الخطاب الثانى والأخير فى حياته وفيه :

(والدى : لقد عشت في الحياة أكثر من عشرين عاماً لم أشعر بأننى خدمت وطنى ، ولكن روحى قد امتزجت عملاً وتفاعلت وإياها نفساً وحساً فكانت تأخذنى في قوة وعنق ، فأثرت الجهاد على غيره من فروع الحياة وفنون العيش .

والدى : إن كفاحى ليس حرفة بل هو إيمان وطبيعة من طبائع الموهبة، هو شىء بين السماء والأرض .

والدى : إن المجاهد والمحارب في هذه المرة يمسك بمدفعه ، وهو لا يدري أتبتعد الدنيا عنه ، أم تقترب منه فقد يكون النصر من الرصاصة الأولى أو الأخيرة وهي تزغرد في جبهة القتال ، فإما أن تسكت الألسنة أو ينهض على أثرها نضال يشحذ عزيمته ، والمجاهد يمضى بمدفعه بعمل ذات اليمين وذات الشمال لا يعرف خوفاً ولا رهبة . لا يعرف الهزائم بل يجد فيه طعماً مستساغاً ، يبدأ معركة جديدة كأنه والحياة عدوان أو صديقان لا يملان من المارك ولا يملان من الهمس والناجاة ، يعيش من أجل الحرية لأن كفاحه آية الحريات .

واعلم يا والدى باننى إذا أردت أن أنكر الوجود فلا مانع أن ينكرنى الوجود .

واعلم يا والدى بأن المحارب رجل بلا مبدأ ، شجرة جرداء لها هيكل محطم دون ظل ممدود، وحسى هذا وإلى اللقاء في ميدان النصر .

وفي يوم الثالث عشر من نوفمبر أصيب أثناء المعركة مع الإسرائيليين والفرنسيين في صدره وساقه، ولكن لم تعقه إصابته عن مواصلة القتال وتناول من جمعته أربطة طبية لفها حول جراحه، وواصل القتال، وفي السادس عشر من نوفمبر بلغ إلى علم قائد المخابرات المصرية الحربية ، أن الفدائى (جواد على حسنى) أصيب وهو يقاتل مع الكتيبة الجامعية ، طواير القوات الفرنسية الإسرائيلية المنتشرة في سيناء

تجاه (العريش) وأن إصابته هذه هي إصابة ثابتة فوق إصابة سابقة لم يشف منها بعد :

مضى (جواد) الروح يستقى الثرى من دمه النشوان خمر النضال
يرمى الصبا في كل فج على مذابح العمر ونار القتال
حرد هي القيد بأسطورة أعتى فداء من سماء المحال

ولما ساءت حالته - أصدر قائد الكتبية الجامعية إليه الأمر بالانسحاب إلى منطقة (القنطرة الشرقية) ولكن جواد عارض قائده قائلا (إن الإصابة يسيرة لا يمكن أن تعمدني عن القتال) .

ولكن القائد حينما رأى الإصابة بالغة ، أصدر أمره بنقله إلى القنطرة الشرقية تمهيدا لنقله إلى المستشفى الحربى فى القنطرة الغربية فقال جواد : (إن ضميرى لا يطيعنى على أن أدخل المستشفى بسبب هذه الجراح اليسيرة ، وإنى أفكر فى الأحرزان الكبيرة التى تهدد ملايين الآباء والأمهات والأخوة والأخوات والأقرباء من أبناء وبنات وأطفال ، من أبناء وطنى إننى أشعر بأن الواجب يقتضى ويقتضى كل مصرى وكل عربى ألا يتهاون فى الدفاع عن الوطن من أجل جراح يسيره ما أسرع أن تندمل .

إن قيامى بالواجب اليوم وعدم دخولى المستشفى ، يذكرنى بالأيام الأخرى التى سجلت فيه بلادنا نصرها على الدخلاء ، وإننى حين أقوم بواجبى كجندى مصرى يعتز بعروبته ، إنما أحمل لواء الثورة التى ملأت كل جوانحى فكألفت فى سبيل غايتها) :

لا يارفاق ما بحسمى حاجة إلى الطبيب .
طبي هنا فى أن أزود العار عن بيتى الحبيب .
لا يارفاق لن أموت جيفة بلا ثمن .
الحشد آلاف ولكنى سأعلم الزمن .

واعلم الطفأة والبغاة والحنن .
أن الحياة أغلى ما تظله الحياة .
وإن من يعدو عليها يدفع الثمن .
اصرار على القتال :

وفي القنطرة الشرقية التقى جواد ببعض الفدائيين الذين يقاتلون في مؤخرة القوات الفرنسية على الضفة الشرقية للقناة ، وعلم الفدائي الجريح أن القوات الفرنسية المعتدية ، وصلت إلى الكيلو التاسع والثلاثين في طريق (الكاب) شرق القناة تجاه القنطرة .

فقال جواد في نفسه (لا بد من إيقاف هذه القوى الزاحفة بأسرع ما يمكن وبأى ثمن) وراح يستفسر من زملائه الفدائيين عن مواقع العدو الاستراتيجية ، وأماكن توزيع قواتهم الضاربة ، وأخذ يدون ماتناهي إلى سماعه .

وعندما جن الليل وأظلمت سماء سيناء ، دب النشاط في أوصال الفدائي الجريح وكانت جراحاته الخطيرة كفيلة بأن تمنعه من تنفيذ ما اعتزم عليه ، ولكنه طلب أربطة طبية جديدة ؛ وأخذ يزيل بنفسه عن جروحه أربطتها القديمة ، وراح يحصى ما مع زملائه من ذخائر واستولى على الجزء الأكبر منها ؛ وما كان لأحدهم أمام عزمه وإصراره أن يرفض رغبته ، وعندما أوغل الليل حمل مدفعه وكميات ضخمة من الذخائر والقنابل ، وأتجه نحو مقدمة الطابور الفرنسي الزاحف نحو القنطرة . وعندما حاول زملاؤه منعه هددهم بالمدافع فاضطروا أن يتبعوه ، ولكنه بعد مدة ذاب في الظلام الذي أخذ يتكاثف ، ولما كانت ذخائرهم لا تكفي للاستمرار في السير فقد عادوا للبحث عن نجدة من الفدائيين تلحق به ، وأخرجت إدارة الخبايا جماعة من المناضلين الأشداء ليساندوه ويسيروا خلفه ؛ ولكنه كان قد سبقهم إلى هدفه بمسافة كبيرة وعند الكيلو التاسع والثلاثين .

وفي منتصف ليلة الخامس من نوفمبر فوجيء الطابور الفرنسى الزاحف بحمم من النيران تنساقط عليه، وكان عنيفاً جباراً وما كان الفرنسيون يقبضون سوى نيران متدفقة على شكل مروحة، وساء مركز مقدمة الدورية الفرنسية بدرجة لا تحتمل، وما كان أمام الطابور الفرنسى سوى أمرين أحلاهما مر : إما الدفاع عن نفسه إزاء سمار هذا الجحيم، أو أن يلقي بنفسه في مياه القتال :

خففت فرداً ولسكن صاعقاً لجبا كأنك الجيش يغزو وهو جرار
وكنت رعباً لآلاف فواجباً الفرد في يأسه والجمع خوار
ظنوا وراءك جيشاً أنت قائده وأنت وحدك فتاك وكرار

وذعر قائد المقدمة الفرنسية واستبد به الملح فأرسل برقية تقول : إن قوات هائلة تثب علينا من الجنوب والشمال وتكاد تقضى على ما بقى منا .

القتلى سبعة عشر والجرحى لم يعرفوا بعد .. النجدة .. نطلب نجدة سريعة وأسرعت النجدة المشودة إلى مقدمة الطابور وحينما أصبحت قوات النجدة على بعد ثلثمائة ياردة لم تدر قيادتها ماذا تصنع لإنقاذ مابقى من جنود المقدمة، وظلت القوات القادمة للنجدة تزحف ببطء شديد حتى أصبحت على بعد مائة وعشرين ياردة من المركز الخلفى للمقدمة، وهنا لم تستطع التقدم خطوة واحدة لأن النيران المتدفقة كانت تقطع الطريق نهائياً على طول تسعين ياردة من يمين ووسط المقدمة، واعتقدت قوات النجدة الفرنسية اعتقاداً جازماً أن هناك قوات أخرى تزحف وتضرب بشدة للقيام بعملية عزل كاملة بين مقدمة الطابور ومؤخرته لحصاها وإبادتها، فأخذت هى الأخرى — قوات النجدة تدافع عن نفسها بدلا من أن تتقدم خطوة واحدة لإنقاذ مابقى من المقدمة .

وأبرقت قوات النجدة إلى مركز القيادة تطلب النجدة، وكانت البرقية

تقول : « قوات ضخمة قضت على مقدمة الطابور، وأصابت ضابطين وجنديين من المؤخرة التي تتقدم للنجدة .

أصبحنا معزولين تماماً عن الخدمة ، والظلام لا يمكننا أن نحدد عدد القوات المهاجمة، كناقمها كما يبدو لاتقل عن كتيبتين، والقوات المصرية المهاجمة لا تستعمل إلا المدافع الرشاشة جيدة المدى .

وتلقى (الكولونيل بازان) قائد القوات الفرنسية هذه البرقية العاجلة ، فأبرق بدوره إلى مقر قيادات القوات الإنجليزية الفرنسية المشتركة يقول : (قوات عسكرية مصرية قضت على مجموعات كبيرة من الطابور الفرنسى عند الكيلو التاسع والثلاثين والقوات المصرية للمعادة تقوم بحركة التفاف واسعة خارج الطابور ننتظر التعليمات) .

وهنا أحس (الجنرال استكويل) نائب القائد العام للقوات الفرنسية الإنجليزية المعتدية بالخطر الجسيم ، فإنه طالما أن الطابور الفرنسى الزاحف شرق القناة والمتوقف عند الكيلو التاسع والثلاثين معرض للهلاك فبالتالى يتعرض الطابور الإنجليزي الزاحف على الضفة الغربية لغيران القوات المصرية المهاجمة ، إذا ما وصلت القوات المصرية إلى الشاطئ الشرقى بعد أن تنتهى من إبادةها للطابور الفرنسى .

وعندما أدرك (الجنرال ستكويل) دقة حرج مركزه أصدر أمره بعقد اجتماع حربي طارئ . لوضع الخطة ، وكان الاجتماع وصدرت الأوامر إلى (الكولونيل بازان) الفرنسى بالتحرك بفصيلتين من المصفحات للنجدة .

وانقضت على هذه الأحداث الجسيمة ساعة من الزمان ؛ وعندما لم يطرأ على موقف القوات الفرنسية أى تحسين أبرق (الجنرال ستكويل) نائب قائد القيادة المعتدية إلى مقر القيادة بجزيرة قبرص يستصرخ قائلاً (قوات مهاجمة (م ١١ — شهداء الإسلام)

قضت على معظم الطابور الفرنسي (وهي على وشك تهديد الطابور البريطاني في غرب القتال .. قائد القوات الفرنسية تحرك بفصيلته للنجدة .. ننتظر التعليمات) ..

وبعد لحظات جاءت برقية بثها الجنرال (تشارلس كيتلي) من جزيرة قبرص حيث مركز القيادة المشتركة إلى الجنرال ستكوبيل في أرض المعركة تقول .. « ننتظر إفاذتنا عن مصير تحركات فصيلتين : المصفحات والسيارات التي يقودها الكولونيل بازان » وهكذا تقدم (الكولونيل بازان) على رأس الفصيلتين لإنقاذ ما بقي من مقدمة الطابور الفرنسي الزاحف ولنجدة قوات النجدة :

تجردت يوماً لحرب الطفافة وكان بغيضاً كوجه السدم
سماؤك بغارقة في اللهب وأرضك واجمة كالظلم
وملء طريقك أشلاء قتلى وأنقاض دور وشلال دم
وثبت إليهم وفي مقلتيك وميض الجريح إذا ما انتقم
تصون بروحك هذا الأديم كأن تقيماً يصون الحرم
وكم وثبة لك صوب المدى أصابت مدافعهم بالبكم
غدوت كأسطورة في الشفاه يذيع عجائبها كل فم

عظمة البطل

وعندما وصلت الفصيلتان بقيادة الكولونيل بازان إلى أرض المعركة فتحت مصفحاته نيرانها بشدة وعنفة، واستعر المكان بالحجم وظلت مدافع المصفحات الفرنسية تهدر وتنفور وتقفز باللهب نصف ساعة، ثم توقف القتال الناشب وانتهت المعركة، وسكنت البروق والزلازل إلا من أزيز تهتز به

المصفحات ودخان يتلوى من فوهات مدافع المصفحات، وتأوهات متقطعة وأجسام ترفع نقالات وزوارق صغيرة تشق مياه القتال .

ومع خيوط الفجر كان (الكولونيل بازان) قد وصل إلى مقدمة الطابور الفرنسي بمصفحاته التي كانت منذ نصف ساعة تلتقي بالقذائف والحجم ، وأدار القائد منظاره ذا العدسات الضخمة في كل اتجاه، وراح يسائل نفسه : أين الجيش الذى كان هنا يصلينا بنيرانه ؟ « لم يجد أثراً لشيء » !

وراح الكولونيل الفرنسى يتابع تساؤله في دهشة (عجيباً لا بد أن يكون هناك كمين) وقطب جبينه هنيئاً، ثم أصدر أمره إلى قواته أن تتخذ وضع الاستعداد، وتقدم الطابور وعلى رأسه الكولونيل بازان إلى أحد الكتيبان الرملية الضخمة وفجأة لمح القائد من خلال منظاره المقرب فوهة مدفع رشاش ممددة فوق حامها الأمامى، وتحتمها شاهد القائد الفرنسى شخصاً بملابس الفدائيين، كان الفدائى منكفئاً على المدفع، وما كان الفدائى سوى البطل (جواد على حسنى) :

ورأيت فى جسمى رصاص الفـدر يـخترق العظام
ودمى يفيض ومدفعى الجبار يسخر بالحمام
ما عدت أدرى أى سابع فوق الفمام
طيراً يحن لغنوة خضراء فى أرض السلام

كان جماعة المناضلين المصريين التي اتجهت خلف (جواد حسنى) قد لحقت به بعد أن قارب كل شيء على نهايته فأخذوا يراقبون الأحداث عن بعد، وعلى ضوء الفجر شاهدوا البطل وقد اتخذ لنفسه من أحد الكتيبان الرملية المرتفعة وضعاً استراتيجياً ويسدد فوهة مدفعه إلى مواقع الأعداء ، ويمطار مقدمة الطابور الفرنسى المعادى من الوسط جاغلا هدفه يمين وشمال المقدمة، مركزاً لنيران الضرب فى مساحة نصف دائرة تبلغ خمسة وسبعين متراً شمالاً ، وخمسة وسبعين متراً جنوباً على

شكل مروحة؛ حتى ليخيل للأعداء أن النيران المتدفقة هي لجماعة منتشرة من الجماعات المقاتلة، وبهذا كانت العملية مفاجئة مذهلة لمقدمة الطابور الفرنسي.

وقبل أن يبرز فجر اليوم الخامس من نوفمبر كانت آخر قذيفة يلقها (جواد) على العدو قنبلة واحدة بقيت معه، ثم انكفأ على مدفعه ومن حوله كومة ضخمة من الطلقات الفارغة، وأغمى عليه. عندما لمح القائد الفرنسي بمنظاره جثة الفدائي؛ أصدر أمره لمصفحته بإطلاق غلالة من النيران حول (الفدائي) دون إصابته، وانطلقت الرصاصات تمزق سكون الصحراء، ولما لم ترتفع رأس الفدائي أو يخنلج جسده فتح القائد الفرنسي برج مصفحته وأسرع بالنزول يتقدمه الجنود بمدافعهم للشرعة، وقال من تقدم منهم إن الفدائي مضى عليه، ونظر القائد من خلال منظاره إلى الأفق من حوله؛ ثم تفحص المكان فوجد أكواماً من الطلقات الفارغة حول الجسد المسجى وآثار قدمين فقط على الرمال ولا شيء سوى ذلك:

الفجر بين يدي رفاقي رائع	يحدو ضمناً في أعز سماء
زحفوا له نحو القناة وخلفوا	كرماً لي الأعداء في (سيناء)
وبقيت روحي تسلف المرقى لكم	ويداي تشوى مهجة التمساء
في ساعدى قوى الحياة وفي دمي	من سر (يوليو) قدرتي ومضائي
وتتابعت من مدفعي الطلقات	تسذف شعبهم بمجندين هواء
حتى كشفت عن الحقيقة زيفهم	وسترتكم فسلكت كالرحماء
في مدفعي صمت وفي عيني نغاس	بعد طول قذائف وعناء
وأفقت والأعداء حولي يارفاق	تشبوا بشجاعة شوهاء

وساءل القائد نفسه (هل يمكن أن يكون هذا ؟ مستحيل) وأمر به أن يلقى على مقدمة مصفحته وأن ينقل معه كل مخلفاته من حوله، وأمر العيون أن

تفقب في المكان جيداً . ولما لم يجدوا شيئاً صدر الأمر بالرجوع . ورجع الطابور الفرنسي يتلوى فوق الطريق ، والكولونيل بازان يستفرقه الدهول ولسانه ما زال يردد (مستحيل أمن أجل هذا الفرد وحده كانت هذه الحركة كلها وهذه الخسائر الفادحة أيمنكن هذا ؟) وضرب القائد الفرنسي قبضته بكفه وهو شارداً أيقضى على ثمانية وعشرين ضابطاً وصف ضابط وجندياً من المقدمة وضابط وصف ضابط وثلاثة جنود من المؤخرة ، وثمانية وثلاثين منهم ثلاثة إصاباتهم خطيرة ؟

وما زال القائد يسائل نفسه .. (أمن الممكن أن يصدر كل هذا من شخص واحد ، البرقيات المتبادلة بيننا وبين القيادة ، وتوقف نظر الكولونيل بازان على الفدائي أمن الممكن أن يكون هذا النحيل المدد على مقدمة المصفحة هو السبب في كل هذه المعارك والاضطرابات ؟) رفض القائد الفرنسي أن يصدق والطابور الفرنسي يمضي ، وضوء النهار يعكس صورته على مياه القتال والمصفحات تتمثر على طريق العودة ، والكولونيل بازان يقف على مصفحته يتميز غيضاً ، ويظيل الكولونيل بازان النظر إلى الفدائي الذي كان مبعث سخرية لهم ؛ والآن كان على الكولونيل الفرنسي أن يبرق إلى (الكولونيل استكويل) ولكن ماذا يقول له ؟ هل يقول (إن فدائياً واحداً من المصريين أورثنا كل هذا العناء والخسائر ؟) كلا ! إذا لتكن البرقية : (لم نعثر إلا على قائد القوات المصرية المهاجمة وقد قدر أحد ضباط القوات المهاجمة بثلاث كتائب كاملة) .

وأخيراً وصول الطابور إلى مقر القيادة المشتركة ؛ وبينما كان الفدائي يعالج بالمنبهات-نظر إليه استكويل وهو يقول (لاشك أنه ضابط خطير يبدو أنه كان قائد قوات الهجوم) ، وأبرق استكويل إلى قبرص يقول :

(تمكنت القوات الفرنسية المصفحة من تطهير المنطقة من القوات المصرية المهاجمة . وأسرت القائد وهي بسبيل استجوابه لمعرفة القوات المصرية وخطتها) .

تعذيب البطل :

أمر (الجنرال أندريه) بوضعه في معتقل الأسرى بلعب كرة القدم (ببور فؤاد) وخصص له مكاناً منفرداً وأمر كولونيل بازان بالحصول على كل المعلومات العسكرية عن الفدائيين وغيرهم التي يعرفها الأسير :

وصحوت من دوامتي ورأيت أنياب الذئاب
أحفاد هولاء هنا أعماقهم أرض خراب
قد جربوا في جسمي الدامي أفانين العذاب
بدى على الجدران سوف أقص ما صنع الذئاب

وبدأ (الكولونيل بازان) في التحقيق مع الأسير الشاب من صباح السابع عشر من نوفمبر حتى الثاني والعشرين من نوفمبر تحقيقاً متواصلاً دون جدوى؛ ولما تبس منه أمر بنقله إلى معتقل آخر، ولم يشفق على جروحه التي كانت لاتزال تنزف صديداً ودماً، وعندما وصل الأسير إلى معتقله الجديد أخذ مجرم الحرب الفرنسي (بازان) يحقق بنفسه مع الأسير، وفي الساعة الرابعة من بعد ظهر اليوم الثاني والعشرين (أمر بازان) بمائدة وكرسي أمام غرفة الأسير، وجلس ثم أمر جنوده أن يأتوه بالأسير ووقف (جواد) مقيد الأقدام مكبل اليدين بأسمال ملوثة بالدم والصدید، وبدأ الاستجواب فكان سجلاً أسود يطنح حقدًا وغلا ووحشية ألا تريد أن نخبرنا من أنت ؟ وما اسمك الحقيقي ورتبتك العسكرية ؟ ونظر الأسير إلى الكولونيل بازان، وقال بلغة فرنسية سليمة لا يجيدها إلا المثقفون من المترفين :

قلت لكم اسمي (جواد على حسني) وسني واحد وعشرون عاماً، وعلى طالب بكلية الحقوق جامعة القاهرة، وجئت أقاتل العدو الذي اعتدى على بلادى .

فقال بازان : هذا واضح من الأوراق التي حصلنا عليها ، ولكنها زائفة ومخابراتنا قالت إنك ضابط برتبة اليوزباشى .

فكرر الفدائى البطل كلامه الأول .

ولما يئس منه بازان أمر بأن يحرم عليه الطعام والشراب ثلاثة أيام كاملة وعرى جروحه الغائرة، وأجلسه على كرسى، ولفه بالسلك الكهربى وأخذ يحرق جسده بأعواد الكبريت ، ويشعل أهداب عينيه بالسيجارة ، وينكأ جروحه بالسنكى ، وطلب ماء فأجابوه .

وقيل لجواد - اعترف ونحن نطمعك ونسقيك ونحلى سبيلك .

فقال الفدائى الشاب : ليس لدى ما أقوله . اسقنى أو اقتلنى أيها المجرم .

وعلى الرغم مما قاساه الأسير المصرى فإنه ظل صامداً لا يتزعزع بل قال :
(إن مصر التى استنار العالم بهديها قروناً وقروناً لن تتخلى عما عقدت العزم على تنفيذها، وإنى فرد من أفراد هذه الأمة الكريمة؛ فمن العار أن أقول لكم أى شيء ضد أمى الكريمة ومواطنى الأعزاء) .

قد راح يسقى بفتة المعتدى	غياهب النعمة شتى الصور
لم يدرك التعذيب فى صدره	طيفاً لسر فى حشاه عبر
بكل ما يذهل بأس الوغى	رد عن الأسوار كل الخطر
وسار للخلد بأنشودة	بكل قلب فى صداها وتر

قصة رائعة

وقد كتب (جواد) قصته الدامية مع الاستعمار وجلاديه بأظفاره وبدمه

تلك القصة التي بدأ كتابتها في اليوم الثاني والعشرين من نوفمبر، وختمها في يوم الأحد الثاني من ديسمبر .

إن (جواد) روى قصته الوحشية والإجرام على حائط معتقل مدفعية السواحل المصرية (بيور فؤاد) رواها الأسير بدمائه التي نزفتها جروحه ، وفي اليوم الثالث من ديسمبر نقل كولونيل بازان أسيره إلى مكان آخر من المعتقل :

فليرغلوا بالنار في صدري وفي ظهري فليس لهيها بالداء
إني قطعت له الدروب طويلة وعركت فيه مخاطر الصحراء
لا السجن يعصف بي وحسبي أنه في أرض مصر الأم في دنيائي
لا القيد يفتني ولا جلادهم يدمي أمانى وحو غفائي
لا الجوع يؤذيني فإن تجلدي يوم الكريهة قنيتي وغذائي
والليل مهما طولوه فهذه رؤيا الشروق تدب في أعضائي

استشهاد البطل

وفي اليوم الخامس من ديسمبر استقر رأي (كولونيل بازان) على التخلص من الأسير الأعزل ، لا رحمة به بل للتخلص من الوثيقة التي تدمغه وقومه بأبشع أنواع الجرائم الدولية التي ارتكبت ضد البشرية ، وضد قوانين الأسر الدولية .

وفي الساعة الحادية عشرة دخل (بازان) على أسيره في غرفته ، وقال له :
يا « جواد » إذهب فأنت مطلق السراح .

فقال الأسير : إنني لا أقوى على المشي ، فأنا جريح وجروحي خطيرة. أنقلني في عربة الاسعاف فقال له : لا- أنت الآن على أحسن حال- لك أن تذهب .

وأشار إلى أحد الحراس فساعدته على المشي .. وتمايل الأسير الشاب ، ولم يكذب يخطو بضع خطوات خارج غرفته في العراء .. لم يكذب يدبر ظهره للقتلة

السفاحين حين أسر (المجرم بازان) بإطلاق النار على الأسير من الخلف ؛ فخر
البطل الشهيد صريعاً يذكي أرض الوطن بما تبقى في جسده من دماء :

قالوا أتركوه فما للسجن من أثر والليث حتى مع الأغلال مغوار
غادرت سجنك محموداً ومنتصراً والخطو في عثرة والجسم منهار
فما أطاقوك بل أرداك منتقما رام جبان من الأعداء غدار

وأمر « بازان » بحمل جثته، وإلقائها في اتجاه حاجز الأمواج في (بور فؤاد)
ووضع الجنود الفرنسيون الأسير في ذورق فرنسي ، وفي عرض مياه الساحل
توسدت جثة البطل المياه إلى الأبد .

أماه إن طلع الصباح وأشرق الفجر الجديد
فخذي أبي ورفاق معركتي إلى أرض الخلود
فعلى صفاء الموج في مينائنا الحلو السعيد
روحي هناك تمايق الأمواج كأنفجر الوليد

في عصر ذلك اليوم ، توجه السفاح (يازان) إلى الضابط المصري رئيس
نقطة بور فؤاد ، وقال له : « إن الأسير المصري جواد حسنى حاول الفرار ،
ولحق به الجنود على ساحل البحر فاضطروا إلى إطلاق النار عليه ، ولا يعرف
ما إذا كان قد أصيب أو مات غرقاً . ا . »

وانصرف وهو يظن أن بلاغه قد يستدل الستار على جريمته . ونسى أن
هناك شاهد عيان كان يطل على الشهيد رأى كل شيء .

لقد كان (اليوزباشى يوسف وهبى) أحد ضباط المباحث العامة على مقربة
من الحوادث الكاملة لهذه الجريمة ، وهو الذى رأى وسمع وشاهد كل شيء

وهكذا ألفت الأمواج بجثة الشهيد ذرات مع الزبد الأبيض ، والرمال النقية
ليعود إلى الأرض التي عاش ليستشهد من أجلها هو : (جواد على حسنى) . . .
البطل الذي استعذب العذاب، وجاد بروحه في سبيل وطنه .

والد البطل

ولما علم والد الشهيد الخالد « جواد » بما حدث تلقى الخبر بثبات المؤمن
الراسخ العقيدة ، القوى الإيمان الراضى بقضاء الله وقدره ، ولم يزد في تأثره
على أن أستعير وتلى قوله : « وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله كتاباً
مؤجلاً ، ومن یرد ثواب الدنيا يؤته منها ، ومن یرد ثواب الآخرة يؤته منها
وسيجزى الله الشاكرين » .

لقد نال ابنى (جواد) أعظم شهادة فهو مع الصديقين والشهداء وحسن
أولئك رفیقاً .

هذه هي قصة الفدائى العظيم الذى اغتاله الخونة فى كفاحه المجيد أنضر
ما يكون شباباً، وأحوج ما يكون الوطن العربى إليه فى كفاحه المر إزاء الغاصبين
ليكون مع رفاقه فى الجبل الصاعد جبهة ملتحمة سامقة الهامة كثيفة الحصون .

وأنت يا (جواد) لقد ضحيت بنفسك من أجلنا لنعيش فى بلادنا أحراراً
فأصبحت من صناع التاريخ، وآباء الوطن، وأصبح اسمك حرفاً من حروف الهجاء
فى نهضة الأمة ، وإذا كانت بقية حياتك خلوداً مع الرفيق الأعلى ؛ فستخلد
انتصاراً لنا المتلاحقة هذه النهضة المباركة :

أتذكر كيف طواك الرصاص وكيف تهاوت عليك الحمم ؟
وكيف احترقت بظلم الطغاة وللظلم قلب عتى أصم
وكيف رقدت بزوزانة إذا نام فيها الحصى لم تنم ؟

لقد آلموك بشئى الجراح فأغضيت عن برحاء الألم
ترى كل تضحية قد تهون إذا ظل شعبك حر العلم
فيالك من بطل قد قضى وما زال حيا برغم العدم

تكريم البطل :

وفي عهدنا المجيد الذى بكرم البطولات الحققة، ويرفع منارها فى جيلنا وفى الأجيال القابلة - كرم هذا الشهيد البطل (جواد على حسنى زين العابدين) فأقيم له متحف فى (بور فؤاد) يخلد آثاره ، وما سطره من رائع بطولته بدمه الغالى ليحجج إليه الشباب ؛ يهتدى بهدية ويجعله مثلاً من مثله العليا ، وهو يهتف بهذا الشهيد :

جواد حفظت عزتنا وكنت ليعرب فخرنا
سكبت الليل جدراننا تعذبهم بها حصرا
بضج المدفع المكودود قد أجهدته صبرا
وإن تفنى كنفاته تقول له خذ الأخرى
تذيب جسامهم بالنار والأرواح لا تبرى
فما يدرون هل جنوا ترى أم أسرفوا سكرنا
أم الطوفان فاجأهم يمور بحشدم مورا
أم الدنيا قد انقلبت فما الصحراء بالصحرا
وأنت حيا لهم فردا تقيم البعث والحشرا
وكذلك أقيم له نصب تذكارى ضخم فى حرم الجامعة التى مثلها فى فضاله المنيع أروع تمثيل .

وأحتفت بأول ذكرى له مدرسته (الإبراهيمية الثانوية) وأقامت له معرضاً يضم آثاره ويخلد أمجاده ، ورفعت له نصبا يمثل مصر الناهضة تحمل إكليل الفار

وترفعه على جبين شهدائنا الأبرار، وعلى وجه منه لوحة تحمل اسم الشهيد، وقد
أزيع الستار عن النصب في الحادى والعشرين من مارس ١٩٥٧ .

أما ذكره الباقية فهى فى كل قلب ماثلة وسبقى حية إلى الأبد .

يا معيدا مجدنا الغابر نم مستريحا فى ظلال الأبدية
رحمة الله على كل فتى عربى راح للعرب ضحية

الفهرست

صفحه	
۳	۱ - کلمات
۵	۲ - مقدمة
۶	(ا) مصعب بن عمير
۸	(ب) عبدالله بن جحش
۹	(ج) خبيب بن عدي
۱۳	(د) أبودجانه
۱۹	۳ - حمزة بن عبد المطلب
۶۱	۴ - عبد الله بن رواحه
۷۵	۵ - أحمد عصمت
۱۰۵	۶ - جلال الدين دسوقي
۱۳۹	۷ - جواد حسني